النظريات السكانية (1)

مقدمة:

كانت القضايا السكانية مثار اهتمام عدد كبير من رجال السياسة والفلاسفة منذ أقدم العصور، إلا أن المفكرين الذين أبدوا اهتماماً بدراسة عوامل زيادة أو قلة السكان وتأثيرها في المؤسسات الاجتماعية ورفاه الجنس البشري لم يعالجوا هذه القضايا بصورة منتظمة كما أن جل اهتمامهم كان منصباً على معالجة قضايا السياسة العامة ذات الارتباط الوثيق بالمشاكل السكانية.

أولاً: الكتابات السكانية في العصور القديمة والوسطى:

كانت الكتابات القديمة تضم بين ثناياها كثيراً من الأفكار التي تعالج العلاقة بين السكان والموارد الاقتصادية.

كونفوشيوس وبعض فلاسفة الصين القدماء قالوا ان الزيادة السكانية والسريعة قد تؤدي الى انخفاض ناتج العامل في المتوسط وبالتالي انخفاض مستوى المعيشة بالنسبة للسواد الاعظم من السكان.

كما أكدوا على تحقيق توازن أمثل بين السكان والأرض. أبدى الكتاب الصينيين القدماء الاهتمام بمعوقات نمو السكان مثل تزايد الوفيات نتيجة قلة الغذاء وقله معدلات الزواج نتيجة ارتفاع تكاليف مراسم الزواج.

كانت المواقف من العائلة والزواج والأنسال تشجع على زيادة السكان. كان الهدف الرئيسي من الزواج عند العراقيين زمن السومريين والبابليين هو الحصول على الأولاد.

بشرت كافة الديانات القديمة بالدعوة الى التكاثر والمحافظة على الحياة. أبدى الفلاسفة اليونان الاوائل اهتماماً أكبر في وضع سياسات سكانية بدلا من صياغة نظريات حول موضوع السكان، عالج كل من افلاطون وارسطو مشكله حجم السكان من ناحية الدفاع والامن والإدارة أكثر من اهتمامهم بعلاقه السكان بالنواحي الاقتصادية.

اجمع فلاسفة العصر اليوناني القديم والكلاسيكي في الدعوة الى حجم سكان ثابت وساكن لاعتقادهم بانه شرط اساسي للمحافظة على الامن والنظام في المدينة.

صور الرومان قضايا السكان من خلال نظرتهم الى امبراطوريه مترامية الاطراف بدلا من دوله المدينة الصغيرة، لذلك كانوا اقل من الاغريق في تحديد نمو السكان وأكثر اهتماما بفوائده العسكرية.

بشرت الديانة المسيحية بالدعوة الى زيادة السكان وقد جاءت معارضة تحديد النسل لديهم لا لأنه يتعارض مع تعاليم الكنيسة وانما بسبب الخوف من قلة السكان نتيجة ارتفاع معدل الوفيات بسبب المجاعات والأوبئة والحروب.

اما اراء الكتاب المسلمين بخصوص السكان فهي مماثلة لآراء الكتاب المسيحيين، ومن أهمهم ابن خلدون والذي يرى:
1- ان زيادة الكثافة السكانية سوف يكون مساعد على رفع مستويات المعيشة لأنها تساعد على تقسيم العمل،
2- وكما يعتقد ان عهود ازدهار الدولة تعقبها فترات تدهور وان التغير الدوري في السكان يواكب التقلبات الاقتصادية.

ثانيا: نحو نظرية حديثة في السكان

امتدت هذه الفترة من أواخر القرن الخامس عشر وحتى نهاية القرن الثامن عشر وقد تميزت بالاكتشافات العلمية الجديدة وكذلك الاستكشافات الجغرافية، نمو التجارة السريع، الاضمحلال التدريجي للنظام الاقطاعي وبداية ظهور الرأسمالية والثورة الصناعية.

1- المذهب التجاري

نظام اقتصادي يرمي الى تعزيز ثروة الدولة عن طريق التنظيم الحكومي لكل الاقتصاد القومي أكد الكتاب التجاريون على اهمية زيادة السكان باعتباره عنصرا مهما من عوامل قوة الدولة كما انها تلعب دورا مهما في دخل وثروه الدولة، كما فضلوا اتباع سياسات تحفز على زيادة السكان مثل تشجيع الزواج وتحسين الصحة العامة ومنع الهجرة الى الاقطار الأخرى.

2- المذهب الطبيعي

ظهر المذهب الطبيعي كرد فعل ضد الافكار والسياسات التي جاء بها اصحاب المذهب التجاري لذلك كانوا يطالبون بترك القوانين الطبيعية تعمل بحريه ودون تدخل الدولة، واعتبروا الزراعة مصدر الثروة الأساسي.
أكد الكتاب التجاريون على وجود علاقة موجبه بين السكان وعرض موارد المعيشة، اي ان حجم السكان يميل الى الزيادة كلما زاد عرض موارد الطعام الضرورية للحياة.
كان موقفهم من زيادة السكان ايجابيا شريطه ان تتمكن الدولة من زيادة الانتاج الزراعي لدعم السكان المتزايد.

3- نظرية مالتوس في السكان:

عارض مالتوس الآراء حول النظام الطبيعي والذي تقول إن باستطاعة الانسان ان يستخدم القوانين الطبيعية العلمية في تحسين انتاجه وصحته ورفاهيته العامة
قال في مقالته الاولى ان مقدره الانسان على الانجاب والنسل أكبر منها على انتاج ضروريات الحياة
لم تكن هذه الفكرة جديده وانما ظهرت في افكار مماثلة في كتابات عدد من السابقين لمالتوس

بلور مالتوس آرائه عن السكان في بحثه الموسوم "مقاله عن مبادئ السكان" المنشور سنة 1798، وقد قام بإصدار خمس طبعات لكتابه آخرها كان عام 1826 وصدرت طبعه أخرى بعد وفاته عام 1872

اعتبر مالتوس المؤسسات الاجتماعية القائمة آنذاك طبيعية وحتمية مؤكدا انه يستحيل ازاله الفاقة عن الطبقات الدنيا في المجتمع، وان سبب الفقر الرئيسي يرتبط قليلا او لا يرتبط مباشرة بأشكال الحكومة أو التوزيع غير العادل للملكية.

تستند نظريه مالتوس في السكان الى فرضين أساسيين هما:

أولا :إن الغذاء ضروري لحياه الناس،

ثانيا :إن العاطفة بين الذكور والاناث ضرورية لاستمرار الحياة.

كما افترض ان السكان حين لا يحول دونهم عائق يزدادون بنسبه هندسيه:

1، 2، 4، 8، 16، 32، 64

بسبب تناقص غله المساحة الثابتة فان امدادات الغذاء يمكن أن تزداد فقط حسب متواليه عددية:

1، 2، 3، 4، 5، 6، 7

نظرا لان نمو الغذاء لا يمكن ان يجاري نمو السكان السريع فان الاخير سوف يميل الى الزيادة بمستوى حدود وسائل المعيشة او عند مستوى الكفاف أو أعلى بقليل.

وأكد أن السبيل الوحيد للتخلص من هذا المأزق هو لجوء الناس الى التخفيض الخلفي بالحد من تكاثر ذريتهم

أدرك مالتوس وجود ضوابط حقيقيه تحول دون نمو السكان بمعدل يفوق نمو الغذاء، وقد صنف هذه العوائق الى مجموعتين:

1- الموانع الإيجابية المتمثلة بالحروب والمجاعات والأوبئة

2- الموانع الوقائية المؤثرة في معدلات الولادة كالإجهاض

أخطر الانتقادات الى نظريه مالتوس جاءت على لسان كارل ماركس والتي تقول ان أصل الفقر والبؤس البشري انما يعود الى طبيعة النظام الرأسمالي القائم على الاستغلال لا الى زيادة نمو السكان عن الحد الامثل والتي يمكن التخلص منها عن طريق التحول الى نظام اشتراكي استمر تأثير نظريه مالتوس حتى العقد الاخير من القرن التاسع عشر حيث ادى النمو الاقتصادي المتواصل الى ارتفاع مستوى السكان وانخفاض الخصوبة لدى الشعوب الغربية مما قلل من أهمية النظرية

ولكن في أعقاب الحرب العالمية الثانية حدثت تحولات سكانية جذريه في البلدان النامية فقد ادى انخفاض معدلات الوفيات السريعة وبقاء معدلات الولادة عالية الى الانفجار السكاني في هذه الدول إلى بروز نظريه مالتوس من جديد إلى الواجهة.

ثالثاً: نظريات السكان في القرن التاسع عشر
سيطرت النظريات البيولوجية (القانون الطبيعي) على تلك الفترة، والتي من بينها:

1- نظرية سادلر (1780-1835)

اعتقد سادلر ان القانون الطبيعي الذي يحكم زيادة السكان يخالف تماما القانون الذي جاء به مالتوس، فهو يرى ان ميل الناس الى الزيادة سوف يتناقص بالطبيعة كلما زاد الازدحام وان اعدادهم تتوقف عن الزيادة في المرحلة التي يتمتع فيها أكبر عدد من الناس بأكبر قدر ممكن من السعادة.

2- نظرية دبداي (1790-1870)

يعتقد ان الزيادة الطبيعية ترتبط ارتباطا عكسيا مع موارد الغذاء فكلما تحسن مورد الغذاء أبطأت الزيادة السكانية.

3- نظرية جوسويه دي كاسترو

يعتقد ان زيادة كميته البروتين في الغذاء يقلل من القدرة على الانجاب في حين ان نقصها يؤدي الى زيادة القدرة على الانجاب ولكن لا يوجد اي دليل علمي على ذلك.

4- نظرية هربرت سبنسر (1820-1903)

يعتقد بان هناك تعارض طبيعي بين اهتمام الانسان بنفسه وبين قدرته على الانسال فكلما زاد الجهد الذي يبذله الفرد لضمان تقدمه الشخصي في كافة الميادين ضعف اهتمامه بالتكاثر لان التطور الاجتماعي ترافقه حتما زيادة النزعة الفردية.

5- نظرية كوارد جيني (1884-1965)

شبه مراحل نمو السكان بدوره حياه الانسان من ولادة وطفولة ومراهقة وشباب ورشد وشيخوخة ثم وفاه، وذكر ان سكان قطر ما ينمو في المرحلة الاولى بسرعه ثم يلي ذلك مرحله الاستقرار ثم مرحله الانقراض النهائي.
يذكر ان نظريته لم تتحقق حتى الان في أي مكان في العالم.

رابعاً: النظريات التقليدية في الاقتصاد السياسي

1- نظرية مستوى الكفاف:

يرى أصحاب هذه النظرية أن الزيادة المستمرة في عدد سكان ستؤدي الى زيادة المعروض من الأيدي العاملة في المجتمع وسوف يؤدي ذلك مع الزمن الطويل الذي حددته النظرية بجيل 25 سنة الى هبوط الاجر الذي يحصل عليه العامل حتى يصل مستوى الاجور الى دون مستوى الكفاف، ونتيجة لذلك سترتفع معدلات الوفيات بين العمال مما يسبب إنقاص المعروض من الأيدي العاملة في المجتمع فيرتفع مستوى الاجور مره اخرى الى فوق مستوى الكفاف. يعتقد جون ستوارت ميل ان مستوى الاجور يعتمد في الغالب على عدد السكان المتزايد مقسوما على رأس المال المتزايد والمستخدم في العملية الإنتاجية.

2- نظرية الوضع الساكن:

يرى اصحاب هذه النظرية ان الزيادة المستمرة في رأس المال والعمال ستؤديان حتما الى هبوط رأس المال المستخدم في العملية الإنتاجية وسيستمر هذا الانخفاض الى مستوى يصبح فيه المخزون من رأس المال ثابتا بينما تصل مستويات الاجور الى نقطه تتعادل عندها مع مستوى المعيشة السائد.

ومن ثم تتعطل أية تنمية اقتصادية في المجتمع ويقف بالتالي نمو كل من السكان ورأس المال ويسود الوضع الساكن المجتمع بكامله.

فاذا استمرت نفس الظروف لمدة طويلة نسبيا ظهرت الاخطار الاقتصادية واحده بعد أخرى. سيؤدي توقف نمو الثروة القومية ورأس المال المستخدم الى قلة الطلب على العمال وبالتالي انخفاض اجورهم وسوف يستمر هذا الانخفاض حتى يصل الى مستوى الكفاف.

3- قانون الغلة المتناقصة:

يرى ريكاردو أن قانون الغلة المتناقصة يبرز الى الوجود بسبب زيادة السكان المستمر دون ان يقابل ذلك زيادة في الاراضي الصالحة للزراعة.

يرى استيوات ميل انه من الضروري ان يلجا الانسان الى تحديد نسله في حدود موارد الثروة التي يستغلها وفي حدود مجهوداته ونشاطاته في كافة الميادين حتى لا يكون السكان المتزايدون عبئا اقتصاديا على الدخول القومية التي لا تنمو الا بصعوبة بالغة.